من حِكَمِ ذكر السنن في القرآن الكريم

من أحسن الحديث

بقلم الشيخ؛ عمر بن محمود أبو عمر
أبو قتادة الفسلطيني

* * *

{ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون * فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون * فلما نسوا ما ذُكِّرُوا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين} [الأنعام: 44-45].

* * *

القرآن الكريم كتاب السنن، هذا قول متفق عليه، لكن "إذا أمعنت النظر ولاطفته وتركت الضجر وتحاشيته"، لرأيت أن سنن القرآن على غير الطريق والشرح الذي يطرقه من فتنته دراسة النظريات النفسية على طريقة الأغيار، ليس فقط في موضوع البحث ولكن في طرائقه وهدفه.

والقرآن الكريم كتاب أحكام وأخبار ومواعظ وهو في ذلك كله له خصوصية عظيمة في طريقة عرض هذه القضايا، وهذه الطريقة تتوافق مع مقصد إنزاله، وهي هداية الخلق إلى الحق.

ولما كان الخلق بين موافق ومخالف، كانت مهمة القرآن أن تكشف جذور الموافقة أو المخالفة، وهي جذور نفسيّة قلبيّة واضحة في فطر الناس، ولكن ميل البعض إلى التعمق المبعد للنجعة يدفعهم إلى إلباس ضلالهم ثوب العقلانية والفكر، وعدم التباس هذه القضية

له أهمية عظمى حين يدركها أهل الإسلام لأنها حين تـبين وتتوضّح فإنها تسـهل عليهم قبـول الأحكـام الشـرعية في حق المخالفين لهذا الـدين، وأنهم أنجـاس أرجـاس، وتزيد تقـديرهم واحـترامهم لمن هـداه الله تعـالى وأبـدلهم في أنفسهم خيراً.

والأحكـام الشـرعية مناطاتها تتعلق بما هو ظـاهر من قول أو عمل، ولكن إن نسينا مبعث القـول والعمل وكيف يتكون أحـدهما في داخل الإنسـان فـإن كثـيراً من التخبط والتيه سيقع فيه الفقيه والحاكم.

ولو نظرنا إلى أهل البــدع قــديماً وحــديثاً لرأينا أن سبب انحــرافهم في فهم الشـريعة على حقيقتها إنما وقع بسبب انحرافهم في تفسير إيمـان المـؤمن وكفر الكـافر، وما نراه اليوم من صـور مشـوهة لمفـتين وقـادة حركـات إســلامية في تهــوينهم لأمر الكفر والمعصــية، وإلبــاس الكــافرين ثــوب العقلانية والفكر إنما مأتــاه من هــذا الانحـراف الناشئ من عـدم فهمهم لجـذور الكفر القـولي والعملي الظاهر وأنه نـابع ومتجـذر من نفس خبيثة وقلب قاس.

إن محبة المــؤمن وموالاته تنشأ وتزيد وتتجــذر حين تعلم أي باطن صالح إنطوت عليه ضلوع صدره، وإن بغض الكـافر ومعاداته تنشأ وتزيد وتتجـذر حين تعلم أي بـاطن خبيث قذر انطوت عليه ضلوع صدره.

هذه واحدة، وأخرى لا بدّ منها في هذا البـاب، وهو أن السنن النفسـية الـتي تحـدث عنها القـرآن إنما يقصد منها الوصـول إلى الأحكـام الـتي يتـدين بها المسـلم، وكـذلك معرفة المسـتقر الـذي تـؤول إليه كل نفسـية، وحق كل نفسية بهذا الحكم وهذا المستقر، وأن الله لا يظلم الناس بل هو أرحم منهم على أنفســهم، وفي ذلك عظة وعــبرة لأهل الإسلام في تنقية بواطنهم وإصـلاحها لئلا يصـيبهم ما وقع على غـيرهم، فالمقصد هو تحقيق عبودية الله تعـالى ودفعهم لها عن طريق هذا السبيل.

والآن إلى الآيــات الــتي صــدرنا بها هــذه الحصة، لنرى فيها ما يفتح الله ما نحن بصدده:

- **{ولقد أرسـلنا إلى أمم من قبلك فأخـذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون}.**

أول ما يجبهك حين تتلو هذه الآية الجليلة العظيمة أن تذكر إن كنت عالماً قول النبي صلى الله عليه وسلم في حادثة ذات أنواط "إنها السُّنن" فدوران الفلك وتعاقب الليل والنهار لا يغيران شيئاً في هذه السنن بل يعود الزمان كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، فلا تتطور ولا تغيّر، ولا استحداث، وكل ما يراه الناس من جديد فهو لباطن واحد ولحقائق داخلية واحدة، وإلا فما فائدة حكاية القديم إن لم يكن فيه فائدة للحاضر والمستقبل، ولذلك يقول الله: يا محمد صلى الله عليه وسلم ما أنت مع قومك، وما ستراه منهم، وما سيقع فيهم إلا جرياناً على سنن الحياة في أعظم قضية تحدث في الوجود وهي قضية "الرسالة"، هذا الحدث العظيم الذي ترتبت عليه الحياة، في سلوك أفرادها وجماعاتها، وفي أحكامهم وفي قضاياهم، في صلاحهم وفسادهم، كذلك فيه إدخال لجانب آخر لا يخطر على البال من جهة الفكر والنظر البديهي، هذا الجانب هو حركة الكون من أقدار وأحداث.

هل للرسالة دور في نزول المطر ونضوبه؟ وهل لها دور في الأمراض البدنية كما لها دور في الأمراض القلبية والنفسية؟ وهل لها دور في زلازل الأرض وبراكينها كما لها دور في الحروب والصراعات؟

هذه الأسئلة وأمثالها هي ما تجيب عليها هذه الآيات الشريفة الجليلة، إنها علاقة الرسالة بالكون، وارتباط أحداثه بما ينشأ في نفوس الخلق من رقة وقسوة، من تضرع وإعراض، من ذكر ونسيان، من اتِّباع للشيطان أو الإعراض عنه، وهو جانب جعل الله تعالى كتابه كاشفاً له في أجلى هداية وأحسن بيان، يهتدي بها أهل القرآن وتطمئن نفوسهم له، وجعل الله تعالى في قدره وكونه من تزيين لأهل الغواية أن لا يهتدوا لها {وكذلك زينا لكل أمة عملهم} ذلك حين تشغلهم هذه السنن بذاتها دون أن يتذكروا قول النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: (لا عدوى ولا طيرة)، فاستفسر صحابي عن هذه السنن التي يراها في انتقال الأمراض من مصاب إلى صحيح فقال له صلى الله عليه وسلم: (فمن أعدى الأول).

فكان لا بدّ من العودة إلى الأول الذي لا ينشأ شيء إلا من خلقه، وهو في علاه أراد من الخلق الخضوع والإخبات لجلاله وكبريائه، فلماذا لا يدرك أهل النظر أن في هذا الإنشاء سوق لهم لهذا الإخبات والخضوع والتضرع: {فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون}

فربّنا سبحانه وتعالى يحب من عباده أن يسألوه وأن يخافوه وأن يحبوه وجماع ذلك يكون في الضراعة فهو تضرع من خوف؛ إذ يتضرع الرجل من خوف، وهو تضرع من حب وتعلق، فبهذا سمي الضِّرع الذي يحلب منه الغذاء السَّائلِ ضرعاً، فهو خوف وحب.

وقد يشكل معنى الحب هنا في هذا الموطن على بعضهم إذ الموطن موطن البأساء والضراء فأين موطن الحب والتعلق.

والجواب على هذا الإشكال في قوله تعالى: {ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله} فهو: رأى المؤمنون الأحزاب هذا بأس وضر، أما قولهم: هذا ما وعدنا - وانتبه إلى اختيار كلمة الوعد هنا لا الوعيد - فهو الحب والتعلق. والعربي القديم قال ذلك شعراً:

لقد ساءني أن نلتني بمذمة　　　كما سرّني أني خطرت ببالكا

فأي محبة هذه في قلوب المخبتين التي أفرحتهم أن الله تعالى ابتلاهم، فرأوا في البلاء ذكرى لهم للتوبة وموعظة لهم للعودة، وفرصة لهم للرقي في مدارج العابدين لبلوغ مقامات ما كان لهم أن يبلغوها لولا هذه السراء والضراء. فهذا هو باب تضرع الحبيب في هذا الموطن وذلك حين نزول البلاء، إنه رب كما يجب أن يخافه العبد كذلك يجب أن يحبه العبد، ولا غنى للعبودية عن هذين الأمرين: الحب والخوف.

- **{فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون}.**

لقد جاءتهم الضراء وحلت بهم البأساء فماذا كان منهم: قست قلوبهم، هذه الموعظة الكونية (الضراء) لم تنفعهم كما لم تنفعهم الموعظة الشرعية -أرسلنا- فالبيان في الآذان صموا عنه، والبيان في الأبدان زادهم صماً، فأي قلوب هذه التي يحملونها؟ وهل هناك من رجاء في هدايتهم؟! وهل هناك خير يرجى منها أو يطمع فيها؟! لقد {قست قلوبهم} والقلوب القاسية لا تعرف الضراعة، فهي لا تحب مولاها ولا تخاف منه، فلا الخير ينفعها كما

في الآية التالية ولا الشر يعظها ولا حسن البيـان يرققهـا، فـأي شـيء سـترقب من الله أن يحكم فيهم؟ وفي أي مستقر سيكون مصيرهم؟! وانظر إلى قوله تعالى {فلـولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا} فيه إيحاء أن هذا ما كان يـرجى منهم، وهـذا المتوقع الحسن الـذي يتلاءم مع الفطـرة والحق، ولكن {قست قلوبهم}.

وههنا لا بدّ من بحث لا يتلاءم الخـوض فيه ههنا ولكن اتـرك القـارئ لينشـغل فيه ويتأمل في جوانبه وهو الحـال الـذي تلقى القلب فيه البأسـاء والضـراء حـتى قسى وصـلب، وكيف فسَّـر هـذا القلب هـذا الابتلاء فـازدادت صلابته وقسوته.

{وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملـون}، وهـذا عامل خـارجي لتكتمل الغوايـة، ولكن تـذكر أنه حـتى لو لم يكن الشـيطان، وحـتى لو لم تكن غوايته وتزيينه فـإن في نفوسهم من الشر ما هو كافٍ للحكم عليهم، ولهم قلـوب قاسية ما تمنعهم بذاتها من قبول الحق واتباعه والضراعة إلى الله الرحيم. فالشيطان يزين والشيطان يغـوي، ولكن فيهم هم من الخبث والقـذارة ما يكفي. فالشـيطان زيَّن لهم ما كانوا يعملـون، فهم عـاملون قبل إغـواء الشـيطان وتزيينـه، ولكنه ههنا أكمل الحلقة حـتى غلقت فلا نفـاذ للخير إلى النفوس والقلوب.

قلوب قاسية وشيطان يزين أعمالها. فيا أيها الرسول {لا يحزنك الـذين يسـارعون في الكفـر}، وهـذه الآية تفسرها آيات أخرى في الكتاب تبيّن سنّة الـرب جـلّ في علاه وصـنيعه في حق من تضـرعوا عند حصـول البأسـاء والضراء وهو ما تقدم في الآية السابقة لهذه الآيـات وذلك في قوله تعالى {قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم السـاعة أغـير الله تـدعون إن كنتم صـادقين * بل إيـاه تـدعون فيكشف ما تـدعون إليه إن شـاء وتنسـون ما تشـركون}، ومثل قوله تعـالى {قل من ينجيكم من ظلمـات الـبر والبحر تدعونه تضـرعاً وخفية لئن أنجانا من هـذه لنكـونن من الشـاكرين * قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون} [الأنعام: 64].

ثمَّ لو جمعت مع هـذا الـذي تكشـفه هـذه الآيـات من نفس هذا الكافر الخبيث مع رحمة الله تعـالى به ليسـوقه للخـير فيـأبى ويـرفض لـرأيت جلياً حقه في الحكم الـذي حكم الله به عليـه، وعـدل القـرار الـذي اسـتقر بـه. قـال

تعـــالى: {ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم المـــوتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون} [الأنعـام: 81]. وقوله تعـالى: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها}.

إن هذا كله الذي يسوقه القرآن من حال هـؤلاء ليقبح صورتهم في نفس نبيه صلى الله عليه وسلم وفي نفوس أتباعــه، ثم ليقبح اختيــارهم وما يشــتهونه وما يعملونـــه، وحتى يعلم أهل الحق أنهم {وإن تطع أكثر من في الأرض يضـلوك عن سـبيل الله * إن يتبعـون إلا الظن وإن هم إلا يخرصــون} [الأنعــام: 116]. وحــتى يقــول لهم {إتبع ما أوحِيَ إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين} [الأنعام: 106]. وحتى يعلم أهل الحق قيمة المؤمن الذي أخبت لربه {ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهـه} [الأنعـام: 52] وحـتى {وإذا جـاءك الـذين يؤمنـــون بآياتنا فقل ســلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة} [الأنعام: 54] وحـتى تعلم أن كفر الكـافر وظلم الظـالم وإعـراض المعـرض ليس لعـدم معرفته للحق أو لضلال فكره مع حسن نيته وقصـده ولكن لخبث نفوسـهم وقساوة قلوبهم {قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} [الأنعـام: 33].

هذه هي سورة الأنعام بعرضها الأحكام الشرعية على هذا النسق وبهذا الاتجـاه: الإغـراء التـام والكشف الواضح لحقائق الأمور من باطنها بعيداً عن انحـراف النـاس مهما كانوا في إعذار الكافر الذي يـدفعك بجهالة للقـرب منه أو الأخذ ولو قليلاً مما عنـده. إنها سـنن الكـون الـتي تكشف لك صواب الشرع وحقانيته.

- **{فلما نسوا ما ذكـروا به فتحنا عليهم أبـواب كل شيء حتى إذا فرحـوا بما أوتـوا أخـذناهم بغتة فـــإذا هم مبلســـون فقطع دابر القـــوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين}.**

ما هي نتـائج قسـوة القلب؟ {فلما نسـوا}. ذلك بعد أن قسى القلب صــار معرضــاً أكــثر وأكــثر عن الــذكر، والنســيان هنا لا يسـتلزم أنهم كـانوا ذاكـرين لـه، بل هم معرضون عنه ابتداءً، ثم جـاءت النعمـاء بل جـاءت بكـثرة عظيمة: {فتحنا عليهم أبواب كل شيء}.

وهذا من تمام مكر الله تعالى بهم بعد إعراضهم عن الذكر بسبب قسوة قلوبهم، حتى إذا أخذوا لا يؤخذوا من شيء لا يتندمون على فواته، بل لتزداد حسرتهم حين يؤخذون من النعيم، وحتى يزداد ألمهم حين يرمون من شاهق مرتفع. كما قال تعالى: {حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة} ليزداد مصابهم وكما قال تعالى: {لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد} [آل عمران: 196] فرفعتهم لا لخير فيهم بل هو من إغراء الله تعالى لهم حتى يكون أخذه لهم أليماً شديداً. قال تعالى: {ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين}.

إذا تفكرت بهذا وأنعمت به نظراً وفقهاً أدركت ضلال أولئك الذين يمدحون الكفر وأهله بما فيهم من لذة ونعيم، وما فتح الله عليهم من الدنيا وأسبابها، تحت دعوى أنهم أصحاب نظر وسنة، ويذمون ما فيه أهل الإيمان من بلاء وجهد ومشقة وعنت، فلا يرون جانب الابتلاء لرفع الدرجات وتنقية الصفوف كما قال تعالى: {ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب} ولا يرون عظة وعبرة الاغراء والمكر الإلهي بهؤلاء الكفرة حتى يبين سقوطهم وتعظم مصيبتهم ويزداد ألمهم {فيزداد الذين آمنوا إيماناً} وليقول أهل الجهالة {وَيْكَأنَّه لا يفلح الظالمون}.

نعم سيتم تدمير ما هم فيه، وسيأخذهم الله تعالى بغتة حتى لا يستدركوا شيئاً فيقدرون الابقاء عليه، وسيزداد تيه أهل الكفر وسيكثر كفرهم، وسيدرك أهل الإيمان عظمة الله تعالى وأنه صاحب الأمر كله، فليس لهم ولا لغيرهم سلطة ولا سلطان ولا يد وسيحمدون الله تعالى وحده، فلا يرون لأنفسهم فضلاً في سقوط أعدائهم وهلاكهم، حينها سيدخلون المدائن مخبتين حامدين شاكرين وهم يقولون: الحمد لله وحده، صدق وعده وأعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده، فهذا هو الملائم لختم هذا المشهد التاريخي الطويل وهو قوله: {والحمد لله رب العالمين} وهو مشهد لا يقع في يوم ولا يومين بل إن دخول الزمن عليه وطوله هو من تمام حكمة الله تعالى ليحصل الابتلاء لأهل الإيمان، وليحصل النسيان وطول الأمد وليتحقق معنى {بغتة} عند أخذهم ودمارهم.

خذ هـذه الآيـات من كل جـانب، وقلبها على أي مـراد تجدها ناطقة بالحق، مليئة بالهداية جامعة لجراميز الخـير، فيها البشارة والنذارة، والوعد والوعيد، والحكم وتفسيره، وفي النفس من الحديث عليها أشياء وأشياء أسـتغفر الله تعالى من عجزي عن الإبانة عنها.

والحمد لله رب العالمين

*بقلم الشيخ: **أبي قتادة الفلسطيني***
عمر بن محمود أبو عمر
عن مجلة نداء الإسلام